

تفسير أبي السعود

فصلت آية 11 12 في أربعة أيام متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها أي قدر حصولها في يومين وإنما قيل في أربعة أيام أي تنمة أربعة تصريحاً بالذلّة سواء مصدر مؤكّد لمضمر هو صفى لأيام أي استوت سواء أي استواء كما ينبىء عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير في أقواتها أو في فيها وقرء بالرفع أي هي سواء للسائلين متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها أو بقدر أي قدر فيها أقواتها لأجل السائلين أي الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين وقوله تعالى ثم استوى إلى السماء شروع في بيان كيفية التكوين إثر بيان كفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لما أن بيان اعتناؤه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادئ معاشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان أي ثم قصد نحوها قصداً سوياً لا يلوى على غيره وهي دخان أي امر ظلماني عبر به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغرة التي ركبت هي منها أو دخان مرتفع من الماء كما سيأتي وإنما خص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معا حسبما ينطق به قوله تعالى فقال لها وللأرض اكنفاً بذكر تقديرها وتقدير ما فيها كأنه قيل فقال لها وللأرض التي قدر ووجودها وودود ما فيها اثباتاً أي كونا واحداً على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما من غير أن يكون هناك أمر ومأمور كما في قوله تعالى كن وقوله تعالى طوعاً أو كرهاً تمثيلاً لتحتّم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعا موقع الحال أي طائعتين أو كارهتين وقوله تعالى قالتا أيتنا طائعين أي منقادين تمثيلاً لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرتا به وتصوير لكون وجوهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع منبئ عن ذلك والكره موهّم لخلافه وإنما قيل طائعين باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب كقوله تعالى ساجدين وقوله تعالى فقضاهن سبع سموات تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعل مترتب على تكوينها أي خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة والضمير إما للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سموات حال على الأول تميز على الثاني في يومين في وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان خلق الأرض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل في ستة أيام حسبما نص عليه في مواقع من التنزيل وأوحى في كل سماء أمرها عطف على قضاهن أي خلق في كل منها ما في الملائكة

